إعجاز القرآن الكريم: معناه، سببه، القدر الحاصل به
– دراسة نظريّة تحليلية تفسيريّة وأصوليّة

(The miracle of the Noble Qur'an, its meaning, its cause, the destiny of it, an analytical, expository and original theoretical study)

د. عدنان بن محمد أبو عمر*

الكلية الجامعية للأم والعلوم الأسرية –عجمان، الإمارات العربية المتحدة، m.adnan@cuca.ae

تاريخ الاستلام: 2020/10/19 تاريخ القبول: 2021/02/24 تاريخ النشر: 2021/07/31

ملخص:

إنّ هذا البحث يعالج مفردةً من مفردات المسائل المرتبطة بكتاب الله عزَّ وجلَّ، وهي مسألة ((إعجاز القرآن الكريم))، وقد جاءت هذه الدراسة متناسبةً مع الفسحة المتاحة لها في هذا المقام، معتمدةً منهج الاستقراء والتحليل والمقارنة والاستنتاج، حيث جمعَتْ أقوال العلماء فيما تناولته من مباحث ومسائل، وعرضَتْ أدلتَهم، وقارنت بينها، واستنتجت ما انكشف لها من وجه الصواب بمقتضى ما أسعفت به الدراسة وأوصل إليه البحث بعد توفيق الله تعالى وفضله ومعونته، وذلك كما في معنى الإعجاز، ومصدره ، والقدر الحاصل به... وغير ذلك مما هو مطويٌّ في ثنايا هذا البحث ومبثوث فيه.

الكلمات المفتاحية: القرآن؛ إعجاز؛ العلماء؛ المعجزة؛ اختلاف؛ الأدلة .

* **المؤلف المرسل**

المنارة للاستشارات

ww

Abstract:

(The miracle of the Noble Qur'an, its meaning, its cause, the destiny of it, an analytical, expository and original theoretical study) This research deals with one of the vocabulary of issues related to the Book of God Almighty, which is the question ((miracles of the Noble Qur'an)). In terms of investigations and issues, and presented their evidence, compared them, and concluded what was revealed to her of the rightness according to what the study sought, and the research reached him after the grace, grace and help of God Almighty, as in the meaning of miracle, its source, and fate… That is from what is folded in the folds of this research and transmitted in it.
Keywords: Quran; miracles; scholars; miracle; disagreement; evidence .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده، والصلاة والسلام على صفوة الخلق سيدنا محمّد نبيّ الله ورسوله، وعلى آله وصحبه وأتباعه. وبعد:

فيطلق مصطلح **إعجاز القرآن** على عجز البشر عن معارضة القرآن والإتيان بمثله أو بمثل ما تحدّاهم به، وميدان الإعجاز من أكثر ميادين البحث والدراسة تسابقاً، فقد تناضلت في ساحاته سهام الهمم، وتسابقت فيه جياد القرائح والأفهام.

وإنّك إذ تطالع ما أُلِّف فيه وما كُتِب في مضماره، وتتأمّل تسابق الأفهام في بلوغ آفاقه؛ لتكاد تجد ما يشبه عراك الأقران وتباري الفرسان، فما من عالم خاض غمار الإعجاز إلا وقد أفرغ فيه طاقته، واستغرق من أجله جهده، وهو يستطلع من آفاقه آفاقاً، ويقطف من أزاهيره وورده زهراً ووروداً، وكلما زاد اطلاعه في سياقه، واتسعت دائرة بحثه فيه واستقرائه؛ كثرتْ من حوله العجائب، وتزاحمت عليه منه الغرائب، وإذا به يعود من جولته حيرانَ يتجاذبه شعوران: أفَتُراه يُسرُّ بحظه من عجائب الإعجاز وغرائبه على قلّته، أم تُراه يتحسرُّ لكون ما عاد به منه ليس أكثرَ من نزرٍ يسير وزاد قليل.

المنارة للاستشارات
ww

وبالرغم من كلّ هذا النتاج العلمي الضخم الذي أفرزتْهُ قرائح العلماء، وسطّرته أقلامهم في ميدان الإعجاز، وبالرغم من جلالة قدر عجائب ما أتوا به وغرائب ما وقفوا عليه؛ رغم ذلك كله يبقى المستور في باب الإعجاز أعظم من المكشوف، ويبقى المخبوء في ساحته مما لم يُعلَم أكثر من المعلن والمعلوم.

وما ذاك بالغريب، فالإعجاز أشبه ما يكون بالدوحة الغنّاء تقف منها على كلّ لون وطيب، تتذوّق جمال الشكل، وتشمّ عبقَ العطر والطيب، غير أنّك تعجز أن تجمع ما تذوّقْتَ في وعاء من الألفاظ، أو تحيطه بسور من الكلمات والمفردات، وذلك شأن الإعجاز، فإنّ أمره عجيب يُدرَكُ ولا يمكن وصفه.

وليس هذا البحث الذي بين أيدينا إلا وارداً ضمن ذلك السياق العام، وما هو إلا خطوة مع الإعجاز، أو إنْ شئْتَ قل : هو رشفةٌ من بحر أعاجيبه وفرائده، وهي رشفةٌ كافيةٌ حسبي منها أنّها مرتبطةٌ بكتاب الله عزّ وجلّ، جارية مجرى الخدمة له في مفردة من مفردات مباحثه، وجزئية من جزئيات مسائله، تلكم هي / **مسألة الإعجاز** /.

أهمية البحث: تكمن أهمية البحث في أمورٍ منها:

1- أنّه من المباحث المرتبطة بكتاب الله عزّ وجلّ، وهو جارٍ مجرى الخدمة له في مفردةٍ من مفردات علومه تلك هي / **مسألة الإعجاز** /.

2- خطورة مبحث الإعجاز ضمن مباحث علوم القرآن الكريم من حيث ما يترتَّب عليه، فبسلامة الإعجاز سلامة القرآن، وبسلامة القرآن سلامة الدّين كلّه، وقيام الحجّة على الناس.

إشكالية البحث: تتمثَّل إشكالية البحث في نقاط الاختلاف القائمة في مبحث الإعجاز، والدائرة إجمالاً حول النقاط الآتية:

1- تحديد معنى الإعجاز؛ ذلك أنّه لم يُتَّفق فيه على معنى واحد، وإنّما تفاوتت فيه العبارات، وتباينت المضامين والمحتويات.

2- تحديد مصدر الإعجاز وسببه، حيث إنّه لم يُتَّفق فيه على رأي واحد أيضاً.

المنارة للاستشارات
ww

3- تحديد القدر الذي يحصل به الإعجاز، وهو الآخر من الأمور التي وقع فيها الخلاف في ميدان الإعجاز، وتعدّدت فيه الآراء والأقوال.

أسباب اختيار البحث:

إنّ المتتبِّع لما ورد في هذا البحث يجد فيه دراسةً لبعض مباحث الإعجاز والمسائل المرتبطة به، حيث تضمّنتْ تلك الدراسة عرضاً لأقوال العلماء في مسائله، وكشفاً للاختلاف الدائر بينهم حول بعض قضاياه ومباحثه، مع عرض الأدلة ومناقشتها وإظهار ما ظهر من وجه الحقّ والصواب فيها، وذلك بحسب ما أسعفتْ به معونةُ الله عزّ وجلّ، وأمدّ به توفيقُه سبحانه وتعالى.

ولقد كان ذلك مجموعاً بعضُه إلى بعض هدفاً سعى الكاتب إلى بلوغه ونوال شرفه، ومثّل لديه رغبةً حدَتْ به إلى أنْ يخوض غمار الإعجاز في تلك المسائل والمباحث والجزئيات، علّه يعود منها ببلغةٍ ما، إنْ لم ينل بمكنتها العلمية مراده من رضا الله تعالى ومثوبته؛ فلينل ذلك بإخلاصه وصدق نيته وسلامة قصده.

هذا ولا يفوتني هنا أنْ أُضيف إلى قائمة أسباب اختيار هذا الموضوع ما ورد في فقرة أهمية البحث، فإنّه يدخل في مجموع العوامل التي دفعتْ بالكاتب نحو اختياره.

الدراسات السابقة:

لا شكّ في أنّ الإعجاز مبحث مطروق وبكثرة في ميدان البحث والدراسة، ولقد أتى العلماء منه على نتاجٍ علميٍّ كبير وغزير، والكتب المؤلّفة في الإعجاز هي من الشهرة والكثرة بحيث تعلو عن الذكر، وتعز على العدّ في هذا المقام، ومنها على سبيل المثال مما أُلِّف قديماً: إعجاز القرآن للقاضي الباقلاني، ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني... وغيرهم كثير، وأمّا ما أُلِّف حديثاً في الإعجاز فلا يكاد يخلو مؤلَّفٌ في علوم القرآن من الحديث عن الإعجاز ووجوهه، وقد أفرده البعض بالتصنيف والتأليف كالرافعي في كتابه/إعجاز القرآن/، وسيد قطب في كتابه/التصوير الفنّي في القرآن/وإعجاز النظم القرآني في آيات التشريع – النظرية والتطبيق، رسالة ماجستير، روضه عبد الكريم فرعون، قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في تفسير القرآن وعلومه، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، 6 – آب – 2002... وغيرهم.

المنارة للاستشارات
ww

وبرغم تلك الغزارة لا يزال معين الإعجاز متدفّقاً معطاءً لكلِّ ناهل وعالل، لم ينضب خيره ولم ينقطع عطاؤه، وهذا إنّما يدلّ على سعة مادته وغنى عجائبه ووفرة غرائبه، وهو ما يجعله مقصدَ كلّ باحثٍ يتلمّس في بابه جديداً، ويترقّب في ساحته غريباً.

وإنّما ورد هذا البحث مورد ذلك السياق العام يتلمّس لنفسه في ميدان الإعجاز جديداً ويترقّب غريباً.

نعم قد يتراءى لك التفاوت بين الأقدمين والمحدثين في تناول مبحث الإعجاز، وربّما طال هذا التفاوت المادة العلمية ذاتها، فمن الملحوظ في الكتابات الحديثة عن الإعجاز اتساع دائرة البحث وخاصّة فيما يتعلّق بالإعجاز العلمي، وعلى مختلف الأصعدة والمجالات العلمية المتنوّعة.

ولا غرابةَ في ذلك مع ملاحظة هذا التطور العلمي الهائل، وسرعة عجلته في عصرنا الحاضر، وإنّك لتجد أنّه كلما تسارعَت عجلةُ السبق العلمي المذهل، وكلما تبجّح العلمُ مفتخِراً بمنجزاته ومعتزّاً بإبداعاته؛ تجد كتاب الله تعالى إزاء ذلك بالمرصاد، بالغاً الغاية القصوى، ومُتبوِّئاً المكانة الأسمى؛ لأنّك ترى فيه أصل العلوم ومنبعَ الحقائق، وإذا بالعلم يصحو من كبوته، ويفيق من زهوه وقد خبتْ جذوته، ليعود راكعاً ساجداً مسبِّحاً بحمد كتاب الله مقرّاً ومعترِفاً له بالفضل والسّبق.

منهج البحث:

اتّبعْتُ في دراستي هذه منهجاً اعتمدْت فيه على الاستقراء والتحليل والمقارنة والاستنتاج، حيث تناولت هذه الدراسةُ أحدَ المباحث المرتبطة بكتاب الله تعالى، وهي مسألة الإعجاز، وباشرت بالبحث بعضَ جزئياته ومفردات مسائله، كتحديد معناه وسببه ومصدره والمقدار الحاصل به وغير ذلك مما هو مطويّ في ثنايا البحث، ولقد جمعت أقوال العلماء، وعرضت أدلتهم، وأظهرت ما بدا لي من أوجه الترجيح فيما بينها.

المنارة للاستشارات
ww

خطة البحث:

سار البحث الذي بين أيدينا منضبطاً بخطّة منهجية واضحة، حيث انقسم إلى مقدّمة وثلاثة مباحث موزّعةً وفق الآتي:

المقدمة: وتتضمن:

أ – أهمية البحث ب – إشكالية البحث ج – أسباب اختيار البحث

د – الدراسات السابقة هـ – خطة البحث

المبحث الأول: المعجزة وقصة الإعجاز:

ويتضمن مطلبين:

المطلب الأول : المعجزة: معناها ، أنواعها ، الحكمة منها

المطلب الثاني : قصة الإعجاز

المبحث الثاني: الإعجاز: معناه، سببه، توصيفه

ويتضمن ثلاثة مطالب: المطلب الأول: معنى الإعجاز

المطلب الثاني: سبب الإعجاز ومصدره

المطلب الثالث : توصيف الإعجاز كأحد عناصر تعريف القرآن الكريم

المبحث الثالث: القدر الذي يتحقق به الإعجاز

ويتضمن مطلبين:

المطلب الأول: أقوال العلماء في القدر المعجز من القرآن

المطلب الثاني: مناقشة وترجيح

التوصيات والمقترحات

المصادر والمراجع

المنارة للاستشارات

المبحث الأول: المعجزة وقصة الإعجاز:

المطلب الأول: المعجزة: معناها، أنواعها، الحكمة منها:

أولاً: معنى المعجزة:

المعجزة أمرٌ خارق للعادة، مقرون بالتحدِّي، سالم عن المعارضة، يُجريه الله سبحانه على يد نبيّ أو رسول لإثبات صدقه في دعوى النبوة والرسالة.

هذا وإنّ الناظر في التعريف يلمح فيه أموراً منها:

1) إنّ المعجزة لا تعلُّقَ لها بالمستحيلات العقلية؛ لأنها أمرٌ ممكن عقلاً، خارقٌ عادةً، ومعنى ذلك أنّ وقوع المعجزة لا يترتّب عليه مستحيلٌ عقلاً، وإنما هي أمرٌ جارٍ على خلاف العادة والمألوف من أنظمة الكون وقوانينه، والخرقُ الواقع فيها إنما هو للعادة وليس للعقل.

2) المعجزة مُنَزَّلَةٌ منزلة قول الله تعالى / صدق عبدي فيما يُبلِّغ عني /، وبالتالي فالغاية منها إثبات صدق النّبيّ والرسول فيما يدَّعيه عن ربِّه.

3) ثبوت العجز عن الإتيان بمثل المعجزة مع ملاحظة اقترانها بالتحدِّي، وكون هذا التحدِّي مُعلناً وصريحاً، وهو ما يدفع إلى تصديق الرسول في دعوى الرسالة؛ لأنّ المعجزة تُمثِّل دليلاً واضحاً يقف بكل باحثٍ عن الحق أمام الحقِّ وجهاً لوجه.

ثانياً: أنواع المعجزة:

المعجزة نوعان: حسّيّة وعقليّة، أما الحسيّةُ فمعجزةٌ ماديةٌ آنيّةٌ، تنقضي بانقضاء وقتها، وهي تُدرَك بالمشاهدة والبصر، وغيرُ متعلِّقةٍ بماهيّة الرسالة، ولا تدخل في جوهرها.

وضمن هذا النوع تندرج كافّة معجزات الأنبياء والرسل السابقين، وبعض معجزات النّبيّ محمد ﷺ .

وأما العقليّةُ فهي معجزة معنويّةٌ خالدةٌ باقيةٌ، تخاطب العقلَ وتُدرَك به، وهي مرتبطة بجوهر الرسالة ومتعلِّقة بصميمها، وهي وثيقة الصلة بأهداف الوحي ومعنى الشريعة ووظيفة النبوّة.

وهذه المعجزة هي المعجزة الكبرى وهي القرآن الكريم المنزَّل على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتمُّ التسليم.

المنارة للاستشارات
ww

ثالثاً: الحكمة من المعجزة والغاية منها:

تتمثّلُ الحكمة من جريان المعجزات على يد الأنبياء والرسل في أمورٍ كثيرة منها:

إثبات صدق النبيّ والرسول في دعوى النبوّة والرسالة، لأنّ المعجزة قائمة مقام قول الله تعالى: "صدق عبدي فيما يُبلِّغ عنّي" .

ومربط إثبات صدق الأنبياء والرسل من خلال المعجزة إنما هو في عجز أقوامهم عن الإتيان بمثلها، وكذلك عجز الرسول والنبيّ عن الإتيان بمثلها بمقتضى الطبيعة البشرية، وبحسب المألوف والمعتاد من أنظمة الكون وقوانينه لولا أنّ الله تعالى أجراها على يديه تأييداً له وإثباتاً لصدقه في دعواه.

وإذا ثبت العجز عن الإتيان بمثل المعجزة بمقتضى الصفة البشرية تعيّن أن يكون ذلك النبيّ والرسول صادقاً في دعواه، وتعيّن على كلّ مُنصِفٍ باحث عن الحقّ أنْ يُذعن لذلك الدليل الواضح؛ فيُقرَّ ويعترف بصدق النبي والرسول في دعوى النبوة والرسالة.[1]

المطلب الثاني: قصة الإعجاز:

روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنّه قال: قال النبي ﷺ: ((ما من الأنبياء نبيّ إلا أُعطِي ما مثلُه آمن عليه البشرُ، وإنما كان الذي أُوتيْتُه وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أنْ أكون أكثرَهم تابعاً يوم القيامة))[2] .

مما هو معلوم في تاريخ الأمم أنه ما من أمّة إلا بعث الله تعالى فيها رسولاً يدعو إلى الله ويُبلِّغ عن الله مرادَه من خلقه، ويؤيّده بالبراهين الدّالّة على صدقه، وهو ما يُعرَف بالمعجِزات، وشأنُ رسول الله محمد ﷺ في ذلك شأنُ سائر المرسلين، غير أنّ معجزته ﷺ كانت أبهر تلك المعجزات، وأعظمها على الإطلاق، وهي القرآن العظيم.

هذا وإنك لو تأملتَ رجاءَ النبيِّ ﷺ أنْ يكون أكثر الأنبياء تابعاً يوم القيامة مع كون معجزته أعظم المعجزات لَلَمَحْتَ صلةً وثيقة وعلاقة وطيدة، وتناسباً وانسجاماً؛ ذلك أنّ عظمة المعجزة ممثّلَة بالقرآن مُفضِية بتوفيق الله تعالى إلى الغاية المرجوة والمأمولة من كثرة التابعين له يوم القيامة، وبلوغه الغاية القصوى من ذلك، والذي يفوق فيه سائر النبيين والمرسلين، هذا فضلاً عن

المنارة للاستشارات
ww

التناسب الملحوظ بين عظمة معجزة القرآن وبين ما اتسمت به نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته من الخلود والعموم والشمول والصلاحية لكل زمان ومكان... وغير ذلك.

هذا ولدى بعثة النبيّ محمد ﷺ وإكرامه بالنبوة والرسالة بدأ يدعو الناس إلى الله تعالى، ويُعرِّفهم دينه، ويُبصّرهم مراده منهم، ومعه في مسيرته تلك كتابُ الله تعالى، فما الذي كان من شأن الناس حيال دعوته ورسالته ؟

لقد قابل المشركون دعوة رسول الله ﷺ بالرفض والإنكار، وطالبوه بالآيات الشاهدات على صدقه في دعواه، فأخبرهم أنّ آيةَ صدقه القرآنُ، بل هو أصحُّ دليل وأقوى برهان، وبدأ يتلو عليهم ما يأتيه به الوحي من كلام الله سبحانه، إثباتاً لصدقه، وإقامةً للحجة، وإتياناً بالدليل، وها هو القرآن يحكي لنا قصة ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت: 50-51].

غير أنّ المشركين من أهل مكة ومن لفّ لفهم أنكروا أن يكون القرآن آيةً دالّةً على صدق رسول الله ﷺ في دعوى الرسالة، وزعموا أنّه ليس فيه ما يوجب التصديق، وأنّه كسائر كلامهم، وأنّ في مقدورهم الإتيان بمثله. قال تعالى في حكاية ذلك: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾[الأنفال:31]

وهنا تحدّاهم القرآن أن يأتوا بمثله أو بمثل بعضٍ منه، وانتهج في إعلان التحدِّي هذا أساليبَ متنوعةً تستنهض الهمم، وتستثير الحميّة، وتستنفر القوى والقدرات، حتى إنّها لشدة إحكامها وعلو بلاغتها لَتَكَادُ تُعيد الرَّماد ناراً لظى، وتبعث في الرّميم الحياةَ، تحدِّياً أعلنه مُفرَغاً بالحثّ والتحميس تارةً، وبالحضّ التقريع تارةً أخرى... وغير ذلك من مختلِف أشكال التحدِّي وأساليبه وطرائقه، إلى أن أعلن مؤكِّداً ومقرِّراً عجزهم عن المعارضة حالاً ومستقبلاً.

فما كانت نتيجة هذا التحدِّي الصريح بأبلغ العبارات، والمعلَن بأقوى الصرخات والصيحات ؟!

المنارة للاستشارات
ww

لا شيء سوى العجز؛ لأنهم لم يفعلوا شيئاً رغم حاجتهم إلى المعارضة، وطُولِ باعهم في موضوعها وهو الكلام، والكلام في العرب سيّد عملهم، وميدان تسابقهم وتباريهم، يعتلون فيه القمم بين الأمم.

نعم إنّه العجزُ، وأيّما عجز !

عجزٌ تامٌّ مُفحِمٌ مُخرِسٌ لكم فمٍ، مُبكِمٌ لكل لسان، وأيُّ لسان ؟!

لسان فحول البلاغة وأساطين البيان، وليت أنّ هذا العجز وقع عفواً، لكن هيهات هيهات !

إنه عجز وقع بعد استفراغ كلِّ جهد، وبذل كلّ طاقة، وبعد جمع الآراء وتعاضد الهمم وتراصّ الصفوف، واستنهاض القرائح... ولكن من غير ما جدوى، فضاقت عليهم أنفسهم، وثقل عليهم عجزهم، مع ما يحملون في طوايا نفوسهم من الأنفة والمفاخرة من جهة، والكراهية والحقد من جهة أخرى، فما كان منهم إلا أنْ التمسوا لأنفسهم للانفلات من هذا العجز سبلاً شتّى، شأنهم في ذلك شأن كلِّ ضعيفٍ بائسٍ مهزوم، فقالوا مرةً إنّه سحرٌ، وقالوا أخرى إنّه كهانةٌ، وزعموا أنّ صاحبهم مجنون... وغير ذلك مما يدل دلالةً واضحةً على مدى التخبُّط الأسودَ، والحيرة والعَمَه الذي ضرب عقولهم، وأذهب رشدهم وبصيرتهم إن كانت لهم من الرشد والبصيرة بقيةٌ ما.

والغريب المدهِش اللافت للنظر هو أنّ تلك المحاولات التي كانت لبعضهم في ميدان المعارضة لكتاب الله بلاغةً وأسلوباً؛ هذه المحاولات غدتْ أضحوكة الناس، وغدا أصحابُها ضُحْكَةَ القوم، ولا تزال ألسن الخلائق تتناقلها جيلاً بعد جيل ساخرةً ضاحكةً مستهزِئةً منها وبها ومن أصحابها وبهم.

هذا والآيات التي تحكي لنا قصّةَ الإعجاز في كتاب الله تعالى كثيرة، وسنكتفي منها في هذا المقام بالبعض، ومنها قوله تعالى:﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [البقرة : 23 – 24]

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء: 88]

المنارة للاستشارات
ww

وإنّ هذا التحدِّي لا يزال معلناً صريحاً يضرب أسماع الناس عرباً كانوا فمن سواهم، يجوب الأرض شرقاً وغرباً، دونما جدوى إلا العجز والإفلاس، والذي غدا أمراً واقعاً ثابتاً مُحتَّماً، هذا العجز الذي تضاءلت معه بلاغة البلغاء قديماً وحديثاً، وتصاغرت حتى لكأنها لم تعد شيئاً مذكوراً.(3).

المبحث الثاني: الإعجاز: معناه، سببه، توصيفه:

المطلب الأول: معنى الإعجاز:

أولاً: معنى الإعجاز لغةً:

العجز: نقيض الحزم، تقول: عَجَز وعَجِز عن الأمر يَعْجِز عَجْزاً فيهما معاً، إذا قَصَرَ عنه.

وعجَّزَ فلانٌ رأيَ فلانٍ إذا نسبَه إلى العجز.

والعجز أيضاً: الضعفُ وعدم القدرة، تقول: عَجَزْتُ عن كذا أَعْجِزُ، وبابه / ضرب /، وأَعْجَزه الشيءُ: عجَزَ عنه.

والتعجيزُ: التثبيط والنسبة إلى العجز، تقول: عَجَّزَه تعجيزاً، أي: ثَبَّطَه، أو نسبه إلى العجز.

والإعجاز: الفَوْتُ والسَّبْقُ، وأَعْجَزَه الشيءُ، أي: فاته، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾[العنكبوت: 22]، ومنه قولك: أعجزني فلانٌ، أي: فاتني. وتقول أيضاً: أعجزني فلانٌ إذا عَجَزْتُ عن طلبه وإدراكه.

والإعجاز: نسبة العجز إلى الغير، وإثباته له، وأعجَزَه: أثبَتَ له العجز فجعله عاجزاً.

والإعجاز في الكلام معناه بحيث يبلغ مبلغاً يُعْجَزُ معه عن معارضته والإتيان بمثله.

وإعجاز القرآن يعني: إثبات عجز الناس عن الإتيان بمثله.

والمعجزة واحدة معجزات الأنبياء، وأعْجازُ الأمور أواخرها، وعَجْزُ الشيْء وعِجْزُه وعُجْزُه وعَجُزُه وعَجِزُه: آخره، يُذكَّر ويؤنّث. وأعجاز النخل: أصولها.(4)

المنارة للاستشارات
ww

ثانياً: معنى الإعجاز اصطلاحاً:

الإعجاز: الخروج عن طاقة البشر وقدرتهم، أو إنْ شئْتَ قل: هو ضعف القدرة البشرية في معارضة المعجزة والإتيان بمثلها، رغم عِظَمِ حرص الإنسان على ذلك وشدّة اتصال عنايته به، مع ملاحظة كون هذا العجز مستمرّاً باقياً على امتداد الزمن وتواليه.

وإعجاز القرآن بحسب اللغة مُرَكَّبٌ تركيباً إضافياً، ويعني: إثبات القرآن عجزَ البشر عن معارضته والإتيان بما تحدَّاهم به.

وإعجاز القرآن من جهة الاصطلاح يعني: ارتقاءَه إلى حدٍّ يخرج عن طَوْق البشر وقدرتهم، ولهذا عجزوا عن معارضته والإتيان بمثله، وبعبارة أخرى يمكن القول: إعجاز القرآن يعني: بلوغ القرآن شأوَ منزلةٍ عاليةٍ تقصر قدرة البشر وتعجز عن معارضته والإتيان بما تحدّاهم به.

وللدلالة على هذا المعنى بالذات اشتهر مصطلح إعجاز القرآن في ميدان البحث والدراسة.

هذا وفي العلماء مَن عرّف الإعجاز بالغاية منه فقال: الإعجاز هو قصد إظهار صدق دعوى الشخص الرسالة عن الله تعالى.

ومما قيل في تعريفه أيضاً: الإعجاز إظهار مدَّعي النبوة الأمرَ الخارق للعادة مع عجز غيره عن الإتيان بمثله.

والحقيقة أنّ الإعجاز ليس قصدَ إظهار صدق دعوى الشخص الرسالة عن الله، وإنما غاية الإعجاز والحكمة منه تتمثل في إظهار صدق النبي في دعوى الرسالة.

وكذلك ليس الإعجاز إظهارَ النبيّ الأمرَ الخارق للعادة.

فلا الإعجازُ الإظهار؛ لما مرّ معنا في تعريف الإعجاز، ولا الإظهار واقعٌ من قبل النبيّ ولا بأمره، بل هو إظهار الله الأمرَ الخارق للعادة على يد النبيّ أو الرسول إثباتاً لصدقه فيما يدّعيه؛ لأنّ خرقَ العادة إنما يحصل بأمر الله وقدرته، وليس بقدرة النبي ولا بأمره.[5]

المنارة للاستشارات

المطلب الثاني: سبب الإعجاز ومصدره:

بعد اتفاق عامة العلماء على كون القرآن مُعجِزاً اختلفوا في مصدر إعجازه وسببه، أي : في تحديد الأمر الذي به كان القرآن مُعجِزاً، أي: بسببه حصل الإعجاز ووقع، وجاء اختلافهم في ذلك مُوزَّعاً على قولين رئيسين، إليك فيما يأتي بيانهما:

القول الأول:

وهو قول جمهور العلماء، وخلاصته أنّ سبب العجز عن معارضة القرآن هو خروج القرآن عن طاقة البشر وقدرتهم، وبلوغه مبلغاً سامياً عالياً قصرَتْ طاقة البشر عنه بمقتضى الطبيعة البشرية والصفة الإنسانية، ولم تستطع أنْ تُدانيه فتبلغ مبلغه أو طرفاً منه، ولكون القرآن خارجاً عن قدرة البشر وطاقتهم عجزوا عن معارضته والإتيان بما تحدّاهم به، أي: القرآن مُعجِزٌ للبشر من خلال سموّه فوق طاقاتهم، فهو منهم فوق قدرتهم، وهم منه عَجَزَةٌ قاصرون، وقصورهم وعجزهم هذا هو فيهم ذاتيٌ أصيل وليس لعارض، ثم إنّ سموَّ القرآن فوق قدرتهم وَصْفٌ لازمٌ للقرآن، لا ينفكُّ عنه ولا يفارقه.

وبالتالي فسبب العجز ومصدره حاصلٌ من جانب القرآن ممثّلاً بعلوّه وسموّه فوق قدرة البشر، وإذا كان القرآن يفوق قدرة البشرة ويعلو فوق طاقتهم، إذاً عجزهم عن معارضته ثابتٌ بداهةً، وهم منه أقلّ من أنْ يثبتوا في وجه تحدّيه، وأعجزُ عن معارضته والإتيان بمثله.

القول الثاني:

وهو قول النّظّام من المعتزلة، وتبعه فيه جماعةٌ منهم، وهو قول بعض الشيعة أيضاً، ويُسمَّى هذا المذهب مذهبَ الصَّرْفة، وخلاصته أنّ القرآن من حيث الأصلُ مقدورٌ على مثله، غيرَ أنّ الله تعالى صرفَ الخلقَ عن معارضته ومنعهم من ذلك.

وفي تفصيل ذلك نقول: زعم هؤلاء أنّ القرآن لم يتجاوز في بلاغته طاقة البشر، ولم يسمُ ولم يعلُ فوق قدرتهم، بل إنّ الإتيان بمثله داخلٌ في مقدورهم غيرَ أنّ الله تعالى صرفَ العربَ عن معارضته، وسلبهم المقدرة على الإتيان بما تحدّاهم به، فصاروا بهذا السّلبِ عاجزين، وبذاك

المنارة للاستشارات
ww

الصَّرْفِ قاصرين، وإلا فهم قبل ذلك على الثبات في مواجهة التحدّي، وعلى القدرة في معارضة القرآن، ولولا منعُ الله لهم وصَرْفه إيَّاهم لكان لهم ما راموه مما تعلَّقتْ به إرادتهم واتصلت به عنايتهم.

هذا ولقد تكاثرَتْ الردود على القول بالصّرْفة، وتناسلت عليه من كلّ حَدَبٍ وصوبٍ، تُنكِره وترفضه، وربّما تسخر منه وتستخفُّ به وتُسفِّهُهُ. (6)

المطلب الثالث: توصيف الإعجاز كأحد عناصر تعريف القرآن الكريم:

إنّ المتتبِّع لتعريفات العلماء للقرآن الكريم يجد أنّ فيهم مَن أورد قيد الإعجاز في التعريف كعنصرٍ من عناصره المكوِّنة له، وفيهم في المقابل مَن أسقطَ قيدَ الإعجاز من التعريف، وأغفل ذكره للاستغناء عنه.

أمّا مَن أورد وصف الإعجاز في تعريف القرآن فإنّما أورده باعتباره وصفاً من الأوصاف التي يتميّز بها المحدود عن غيره، والخلاف في كونه وصفاً لازماً يسيرٌ بين العلماء.

وأمّا مَن لم يورد وصف الإعجاز في التعريف؛ فلأنّه لا يرى تقييد التعريف بالإعجاز، وإنّما الإعجاز من وجهة نظره هو لإظهار صدق النبي ﷺ، وليس للدلالة على كون القرآن كلام الله تعالى، ثم إنّ ذكر قيد المعجِز في التعريف يُخرج من المعرَّف – وهو القرآن – الآيةَ وبعضَ الآية مع أنّها من القرآن اتفاقاً، وإن لم تكن معجِزةً. (7)

وبالتالي فليس من مقتضٍ لذكر قيد الإعجاز في التعريف. وإلى هذا مال الغزالي والبزدوي، وهو اختيار الآمدي في الإحكام.

هذا والذي يبدو لي أنّ قيد الإعجاز الوارد في تعريف القرآن هو وصف لازم بيّنٌ تتميّز به حقيقة القرآن، ولا يُقال: كيف تزعم كون الإعجاز وصفاً لازماً بيِّناً، وهو أخفى في الدلالة من المعرَّف – وهو القرآن – ولا يعلم معناه ووجوهه إلا الآحاد من العلماء، فكيف يكون وصفاً لازماً ثم بيّناً مع هذا الخفاء كلِّه ؟

المنارة للاستشارات

وفي الجواب عن ذلك نقول: نعم صحيحٌ كونُ الإعجاز ليس وصفاً لازماً من حيث إنّه لا يعلم معناه ووجوهه إلا الآحاد من العلماء، لكن مَن قال: إنّ هذا المعنى هو المراد من وصف الإعجاز؟ نعم كان يستقيم لكم تساؤلكم واعتراضكم أنْ لو كان هذا المعنى هو المقصود بوصف الإعجاز الوارد في تعريف القرآن، ولكنّه غيرُ مقصود، وإنّما المقصود بوصف الإعجاز أنّ القرآن أُنزِل للإعجاز، أي : مقصود به الإعجاز؛ لقيام الحجة به وإثبات صدق النبي صلى الله عليه وسلم في دعوى الرسالة، والإعجاز بهذا الاعتبار يكون وصفاً لازماً بيِّناً، وهو من هذه الجهة المقصودُ بالتعريف. (8)

المبحث الثالث: القدر الذي يتحقق به الإعجاز:

تمهيد:

لسائل أنْ يتساءل فيقول: هل إعجاز القرآن حاصلٌ بكامل القرآن أو ببعضٍ منه، وإن كان حاصلاً ببعض القرآن، فما مقدار هذا البعض ؟

هذا المبحث معنيٌّ بالجواب عن هذا التساؤل، وبيان أقوال العلماء فيه، وإنّما نعني بالقدر الذي يتحقق به الإعجاز القدر من القرآن الذي يُعجَز عن الإتيان بمثله، بحيث إذا توافر هذا القدر وقع الإعجاز وتحقّق، وإذا لم يتوافر لم يتحقّق الإعجاز ولم يقع، وقد اختلف العلماء في القدر المعجِز من القرآن على أقوال، ستكون محور دراستنا في المطلب الآتي.

المطلب الأول: أقوال العلماء في القدر المُعجِز من القرآن:

القول الأول:

أنّ أقلّ ما يتحقق به الإعجاز من القرآن السورة أو ما كان بقدرها، سواءٌ أكانت السورة طويلةً أم قصيرةً، فإذا كانت الآية بقدر سورة كانت مُعجِزةً وإلا فلا، ويكفي أنْ تكون بقدر سورة ولو كانت أقصرَ سور القرآن، وهي سورة الكوثر، وهي ثلاث آيات.

وهذا القول هو قول أبي الحسن الأشعري والقاضي الباقلاني، وهو اختيار ابن الحاجب وغيرهم.

المنارة للاستشارات
ww

واستدلّ هؤلاء لما ذهبوا إليه بأدلة منها:

1) ظاهر قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾[البقرة:23] إذ المذكور في معرض هذا التحدّي الإتيان بسورة.

2) انتفاء الدليل على عجزهم عن المعارضة بأقل من هذا القدر، وهو السورة أو قدرها.

3) ومما ذُكر في وجه كون المتحدَّى به سورةً من القرآن، وإن كانت قصيرةً دونَ الأقل أنّ معقد البلاغة راجعٌ إلى مجموع نظم الكلام والغرض الذي سيق لأجله، وكون صوغه مبنياً على فواتح وخواتم وأغراضٍ يتنقّلُ بينها، مع ما يتسم به من الإيجاز والإطناب والاستطراد والاعتراض... وغير ذلك.

ومَن جعل الإعجاز حاصلاً بقدر سورة وجد هذا المعنى الموجِب للإعجاز ملحوظاً فيه، أي: ملحوظاً في قدر سورة، فكما أنّ معقد البلاغة ظاهر في السورة وإن كانت قصيرةً كذلك يظهر في قدرها لإمكانية اشتمال قدر السورة على ما اشتملت عليه السورة من قوى البلاغة ومعاقدها.

هذا ولوقوع الإعجاز بالسورة توجيه آخر قُيِّدَتْ به السورة بكونها تبلغ في الطول مبلغاً تبين فيه رتب قوى البلاغة ومعاقدها؛ لأنّ ما هو أقلّ من ذلك لا يجري فيه إعجازٌ؛ لأنّ غير البليغ أو من هو أدنى في البلاغة قد يصدر عنه من الكلام البليغ ما هو مماثلٌ لبعض الكلام البليغ الصادر عمن هو أبلغ منه، وربما زاد عليه في البلاغة.

وإذا ثبت ذلك تعيَّن تقييد الإطلاق في قوله تعالى: ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ ﴾[البقرة: 23] بما ذكرنا من كونها بالغةً في الطول مبلغاً تظهر فيه قوى البلاغة، وإلا فلا يثبت إعجازٌ فيما هو أقلُّ من ذلك؛ لأنّه مما لا تبين فيه رتب ذوي البلاغة، وهو من الكلام مما لا يحصلُ فيه تفاوتٌ في البلاغة، ومثله لا يحصل فيه إعجازٌ، ولا يقع فيه تعجيز، ويكون حمل التحدّي عليه مُمتنِعاً.

وهذا التوجيه هو الأصحّ مما ارتضاه القاضي الباقلاني، وهو اختيار أبو اسحاق الإسفراييني، وقال به جماعة آخرون غيرهم.

المنارة للاستشارات

القول الثاني: يحصل الإعجاز بقليل القرآن وكثيره:

وتمسّك أصحاب هذا القول بقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الطور: 33-34] حيث إن إطلاق كلمة (حديث) دلّ على أنّ قليل القرآن وكثيره مُعجِزٌ؛ إذ التحدِّي واقعٌ به، أي : بحديث مثله سواءٌ كان قليلاً أم كثيراً.

وأجيب عن هذا الاستدلال بأنّ الحديث التامّ لا تتحصّلُ حكايته في أقلّ من كلمات سورة قصيرة.

القول الثالث: أنّ الإعجاز يحصل بآية، ولا يحصلُ في بعض آيةٍ:

وقد استدلّ هؤلاء لما ذهبوا إليه بقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الطور: 33-34]

لكن تُعُقِّب هذا القول بأنّه ليس على إطلاقه، وإنّما هو مقيَّدٌ بالطوال من الآيات، فإنّ في بعضها إعجازاً.

ووجَّه بعضُهم القولَ بوقوع الإعجاز بأيةٍ بأنّه إنّما يحصل الإعجاز بآيةٍ إذا كانت مُشتمِلةً على ما به يحصل التعجيز وإلا فلا، وذلك كما في آية: ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ﴾ [المدثّر: 21] فإنّه لا إعجاز فيها، وعلى هذا التوجيه يكون الإطلاق في قوله تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ ﴾ [الطور: 34] مقيَّداً بكونه مُشتمِلاً على ما به يقع الإعجاز، أي: بحديث مثله في الاشتمال على ما به يحصل الإعجاز ويقع.

القول الرابع: أنّ الإعجاز يحصل ببعض آيةٍ:

وهذا القول منقول عن القاضي الباقلاني وغيره . واستُدِلّ له بقوله تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الطور: 34] فالآية مطلقة تصدقُ في كلّ ما يُسمَّى حديثاً، ولو بعض آيةٍ، وهي باقية على إطلاقها.

المنارة للاستشارات
ww

وتُعُقِّب هذا القول بأنّ الظاهر أنّ المراد حصول الإعجاز في بعض آية مما فيه إعجاز، وإلا كيف يستقيم أنْ يُقال في مثل قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ﴾ [المدثّر: 21] إنّ في بعضها إعجازاً. والواضح أنّه لا إعجاز فيها ولا في بعضها.

القول الخامس: أنّ الإعجاز حاصلٌ بكل سورة من القرآن برأسها. وهو قول المعتزلة:

وقد حُكِي عن بعض المعتزلة قول آخر على نحو القول الأول، وهو أنّ الإعجاز حاصلٌ بسورة غيرَ أنّهم لم يشترطوا لحصوله في الآية أنْ تكون بقدر السورة، بل اشترطوا لوقوع الإعجاز في غير السورة الآيات الكبيرة.

هذا وبناء على اختلاف العلماء في تحديد القدر المعجِز من القرآن تفاوتت عباراتهم في تعريفه، فمن يرى الإعجاز قيداً في التعريف ذكره فيه، ثم بعد ذلك أيضاً تباينت عباراتهم، فمن يراه حاصلاً بسورة ذكر ذلك، فقال: / القرآن الكلام المنزَّلُ (للإعجاز أو المعجِز) بسورة منه /، ومثاله ابن الحاجب في المختصر ومن تابعه من الشّرّاح وأصحاب الحواشي.

ومن يراه حاصلاً بآية ذكر ذلك في التعريف فقال: "القرآن الكلام المنزَّلُ (للإعجاز أو المعجِز) بآية منه"، ومثاله الزركشي في البحر المحيط. (9)

المطلب الثاني: مناقشة وترجيح:

هذا وإنّ المتتبِّع للمسألة يجد فيها أقوالاً أخرى غير ما ذُكر، على أنّ فيما ذُكر منها بُلغة كافية في هذا المقام.

والذي يبدو لي في ختام هذا التطواف في أقوال العلماء وأدلتهم في القدر الحاصل به الإعجازُ أنّه السورة؛ لاشتمالها على ما به يقع التعجيز، وما فيه يظهر التفاوت، وتبين فيه رتب ذوي البلاغة، وهو بعينه ما حُمل عليه التحدِّي.

وأمّا ما كان بقدر السورة فيحصل فيه الإعجاز شريطة اشتماله على ما به يقع التعجيز، وتظهر فيه رتب قوى البلاغة وإلا فلا؛ لأنّ هذا الاشتمال هو السرّ الذي به كانت السورة مُعجِزةً.

المنارة للاستشارات

أمّا كونُ السورة مشتملةً على ما به يحصل التعجيز؛ فلأنّها مجموع كلام مستقلٍّ لها فاتحة وخاتمة وأغراض سيقت لأجلها، وفنّ البلاغة راجعٌ إلى هذا المجموع المنظوم من الكلام وصوغه والغرض الذي سيق لأجله. وليس من الضرورة أنْ يتوافر ذلك المجموع في قدر السورة من الآيات، فالحاصل للسورة من ذلك قد يكون حاصلاً لقدرها من الآيات، وقد لا يكون حاصلاً لقدرها، بل يتطلب زيادةً على ذلك القدر.

وبالتالي فمتى توافر القدر من الآيات المشتمِل على السرّ الموجِب للإعجاز في السورة كان ذلك القدر من الآيات معجِزاً، ويكون ما سواه غير معجِزٍ.

والسبب في ذلك أنّ حمل التحدّي على ما لا تفاوت فيه في البلاغة ممتنِعٌ؛ لأنّه مُفضٍ إلى عدم حصول الإعجاز، لكنّ الإعجاز حاصلٌ، فيكون التحدِّي محمولاً على ما به يحصل التعجيز، وهو ثابتٌ في السورة مطلقاً طويلةً كانت أو قصيرةً لما تقدّم، ولأنّه الظاهر في قوله تعالى: ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾[البقرة: 23] .

وليس الأمر كذلك في قدر السورة من الآيات؛ لذا اشتُرِط في الآيات توافر موجِب الإعجاز، وهو الاشتمال على ما به كانت السورة معجِزةً، وسواءٌ بعد ذلك الاشتمال أن تكون الآيات بقدر السورة أو أكثر؛ إذ العبرة في توافر موجِب الإعجاز.

هذا ومما تجدر الإشارةُ إليه هنا هو أن تحديد القدر المعجِز من القرآن إنّما هو باعتبار أحد وجوه الإعجاز في القرآن، وهو بلاغته وأسلوبه، وبلوغه في ذلك الغاية القصوى، أمّا ما عدا ذلك من أوجه الإعجاز وجهاته فما أظنُّ الخلاف في تحديد القدر المعجِز جارياً فيها، ولربّما تضمّنت آيةٌ خبراً أو حقيقةً علميةً مما يعجز البشر عن الإحاطة به أو الإتيان بمثله، وليس يُشترَط والحالة هذه – فيما يبدو لي – لتحقق الإعجاز في نقل ذلك الخبر أو عرض تلك الحقيقة العلمية قدرٌ محدَّدٌ من القرآن، بحيث يترتب على فواته فوات الإعجاز؛ لأنّ الإعجاز قائمٌ هاهنا في الإخبار عن المغيبات، وكذل في الكشف عن الحقيقة العلمية، ولا يتعيّن لبلوغ ذلك كمٌّ محدَّدٌ من الكلام، فربّما وقع بأيةٍ أو ببعض آيةٍ أو أكثر، ولا حرج في ذلك كله.

المنارة للاستشارات
ww

الخاتمة:

أولاً: أهم نتائج البحث:

1 – ثبوت تأييد الله تعلى أنبياءه ورسله بالمعجزات الدالة على صدقهم، وإنما كانت معجزة النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم القرآن الكريم، وهي معجزة باقية خالدة.

2 – تحدّى القرآن العرب أن يأتوا بمثله، ودعاهم إلى معارضته، وحثّهم على ذلك واستنفرهم بأساليب شتّى، ولكن دون جدوى سوى العجز، وإنّ كلاً من إعلان التحدِّي وثبوت العجز ثابت بالنقل المتواتر.

هذا وبقيام الحجة على العرب قامت على غيرهم من باب الأولى.

3 – سبب عجز العرب عن معارضة القرآن ومصدره إنّما هو بلوغ القرآن الغاية القصوى والذروة العليا، والتي بها خرج عن طوق البشر وقدرتهم، وللدلالة على هذا المعنى اشتهر مصطلح إعجاز القرآن الكريم في ميدان البحث والدراسة.

وليس الأمر في ذلك كما زعم النّظام ومن تابعه أنّ الإعجاز إنما بصرف العرب عن المعارضة وسلبهم القدرة على ذلك.

4 – لم يتّفق العلماء على القدر الحاصل به الإعجاز، وإنما اختلفوا فيه، والذي انتهى إليه البحث أنّ الإعجاز حاصل بالسورة طويلةً أو قصيرة للنص عليها، وكذلك حاصل بقدر السورة بشرط اشتماله على ما به يحصل التعجيز والله أعلم.

ثانياً: التوصيات والمقترحات:

1 – التزام منهج الإيجاز والاختصار في عرض علوم الشريعة الإسلامية من خلال تقديم مباحث تلك العلوم ومسائلها في صورة مقالات، فيُتخَذ من ذلك وسيلةً للتعريف بدين الله تعالى والدعوة إليه؛ لأن هذا العرض المختصر يُسهم في وضع علوم الشريعة في متناول عامة الناس والمثقفين منهم، ويساعدهم في الإفادة منها، لا سيما وقد عزفت النفوس في هذه الأيام عن قراءة المطولات ومطالعة الأمهات، ومالت إلى المختصرات والموجزات.

المنارة للاستشارات
ww

ولعل من الحكمة في التعاطي مع حالة الناس تلك ونحن ندعو إلى الله أن تُقدَّم كنوز الشريعة الإسلامية في هيئة مقالات ومختصرات، حيث يجد الإسلام فيها طريقه إلى الناس وفي أوسع نطاق ممكن.

2 – تأتي هذه الدعوة إلى التزام منهج الاختصار في عرض علوم الإسلام محاطةً بضرورة التنبُّه الشديد إلى المحافظة التامة على المادة العلمية ونقائها وسلامتها من كلّ أشكال التشويه والتنكيس، وهي إنما تحذر من التشويه؛ لأنه كثيراً ما يكون الاختصار عرضةً للوقوع فيه.

3 – هذه الدراسة تُلفت النظر إلى إعجاز القرآن الكريم، وتدعو إلى مواصلة البحث في ميدانه، وتوصي بالاستزادة من عجائبه وغرائبه؛ نظراً لكون الإعجاز لا تنقضي عجائبه، ولم ينته فيه البحث إلى حدٍّ يغلق بابه.

المنارة للاستشارات
ww

الهوامش:

([1]) ينظر في معنى المعجزة وأنواعها والحكمة منها: الإتقان للسيوطي (2 /1001)، والعقيدة الإسلامية لـ د. عبد الرحمن حبنكة : ص300 وما بعدها، ومبادئ العقيدة الإسلامية لـ د. مصطفى الخن : ص 224 وما بعدها، وبحوث منهجية في علوم القرآن لموسى الإبراهيم : ص 126

([2]) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي وأول ما نزل (3 / 1798) رقم / 4696 /

([3]) ينظر في قصة الإعجاز : البرهان للزركشي (2 / 9 وما بعدها) ، والإتقان للسيوطي (5 / 1874 وما بعدها) ، ومن روائع القرآن لـ د. البوطي : ص 127 وما بعدها ، ومبادئ العقيدة الإسلامية لـ د. الخن : ص 264 وما بعدها ، وبحوث منهجية في علوم القرآن لموسى الإبراهيم : ص 124 – 125 ، ومحاضرات في علوم القرآن لغانم الحمد : ص 237 وما بعدها ، والعقيدة الإسلامية لـ د. عبد الرحمن حبنكة : ص 300 وما بعدها ، والواضح في علوم القرآن لـ د. البغا ومستو: ص. 149 – 150

([4]) ينظر : لسان العرب لابن منظور (7/9 وما بعدها)، والقاموس المحيط للفيروزآبادي: ص 663 – 664، ومختار الصحاح لأبي بكر الرازي : ص 413 – 414، وموسوعة مصطلحات أصول الفقه لـ د. العجم (1 / 218 – 219)

([5]) ينظر في تعريف إعجاز القرآن اصطلاحاً: مناهل العرفان للزرقاني (2 / 331)، و إرشاد الفحول للشوكاني (1 / 170)، ومن روائع القرآن لـ د. البوطي: ص125، وبحوث منهجية في علوم القرآن لموسى الموسى: ص125، ومحاضرات في علوم القرآن لـ د. غانم الحمد : ص 236 – 237، والواضح في علوم القرآن لـ د. مصطفى البغا ومحيي الدين مستو: ص 150 – 151، والتحبير للمرداوي (3 / 1241) ، وبيان المختصر للأصبهاني (267/1)، ونهاية السول للإسنوي (177/1)، والردود والنقود للبابرتي (1 / 465 – 466)

([6]) ينظر في أقوال العلماء في مصدر العجز : مناهل العرفان للزرقاني (2 / 414 – 415)، والبرهان للزركشي (2 /93 وما بعدها)، والإتقان للسيوطي (1005/2 وما بعدها)، ومن روائع القرآن لـ د. البوطي : ص125 وما بعدها، والبحر المحيط للزركشي (360/1)، والتحبير للمرداوي (1354/3)، والتحرير والتنوير لابن عاشور (/ 107)، وعلوم القرآن لـ د. شحاته : ص103، ومحاضرات في علوم القرآن لغانم الحمد : ص243.

([7]) هذا موجَّه على القول بعدم حصول الإعجاز في الآية أو بعضها

([8]) ينظر: المستصفى للغزالي (293/1)، وكشف الأسرار لعبد العزيز البخاري (1 / 69 – 70)، والإحكام للآمدي (216/1)، وحاشية السعد على شرح العضد (2 / 18) ، وفواتح الرحموت لابن نظام الدين (2 / 13 – 14)، والتحبير للمرداوي (3 / 1242)

([9]) ينظر في أقوال العلماء في القدر المعجز من القرآن : البرهان للزركشي (2 / 18– 19)، والإتقان للسيوطي (1896/5)، والتحبير للمرداوي (3 / 1238 – 1239 و 1356 وما بعدها) ، وشرح الكوكب المنير لابن النجار (2 / 117 – 118) ، والتحرير والتنوير لابن عاشور (1 / 104)، والبحر المحيط للزركشي (1 / 356 – 357)، ورفع الحاجب للسبكي (2 / 82 – 83) ، ومناهل العرفان للزرقاني (2 / 333 – 334)

المنارة للاستشارات
ww

المصادر والمراجع:

01- ابن النجار، محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن علي الفتوحي الحنبلي، شرح الكوكب المنير المسمى بمختصر التحرير أو المختبر المبتكر شرح المختصر في أصول الفقه، ت: د. محمد الزحيلي ود. نزيه حماد، مكتبة العبيكان، الرياض- السعودية، ط. 2، 1418هـ / 1997م .

02- ابن المنظور، لسان العرب، علق عليه: مكتب تحقيق التراث، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت- لبنان، ط .2، 1412هـ / 1992م دار إحياء التراث العربي، بيروت- لبنان، ط.3، 1413هـ / 1993م،

03- أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، المستصفى من علم الأصول، ومعه كتاب فواتح الرحموت، للعلامة عبد العلي محمد بن نظام الدين الأنصاري بشرح مسلم الثبوت في أصول الفقه، للشيخ محب الله بن عبد الشكور، ضبط وتعليق: الشيخ إبراهيم محمد رمضان، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت- لبنان، (د.ت.) .

04- الآدمي، علي بن محمد، الإحكام في أصول الأحكام، تعليق: العلامة الشيخ عبد الرزاق عفيفي، دار الصميعي، الرياض- السعودية، ط.1، 1424هـ / 2003م .

05- الأصبهاني، أبي الثناء شمس الدين محمود بن عبد الرحمن، بيان المختصر، ت: د . علي جمعة محمد، دار السلام، مصر- القاهرة، ط.1، 1424هـ / 2004م .

06- البخاري، أبي عبد الله محمد بن اسماعيل الجعفي، صحيح البخاري المسمَّى الجامع المسنَد الصحيح المختَصر من أمور رسول الله صلى لله عليه وسلم وسُننه وأيامه، ت: د. مصطفى ديب البغا، دار العلوم الإنسانية، دمشق- حلبوني، ط. 2، 1413هـ / 1993م . البابرتي، محمد بن محمود الحنفي، الردود والنقود شرح مختصر ابن الحاجب، ت: ضيف الله بن صالح بن عون العمري، مكتبة الرشد ناشرون، الرياض، ط. 1، 1426هـ / 2005م .

07- البخاري، علاء الدين عبد العزيز بن أحمد، كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي، ضبط وتعليق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ط. 2، 1414هـ / 1994م، و ط 3، 1417هـ / 1998م .

08- التفتازاني، سعد الدين، حاشية التفتازاني على مختصر المنتهى الأصولي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 2، 1403هـ / 1994م .

09- جمال الدين عبد الرحيم بن حسن الإسنوي، نهاية السول في شرح منهاج الوصول إلى علم الأصول للقاضي ناصر الدين البيضاوي، ت: د. شعبان محمد اسماعيل، دار ابن حزم ، بيروت- لبنان، ط.1، 1420هـ / 1999م .

10- الحنبلي، علاء الدين علي بن سليمان المرداوي، التحبير شرح التحرير في أصول الفقه، ت: د . عبد الرحمن بن عبد الله الجبرين، مكتبة الرشد، الرياض- السعودية، ط.1، 1421هـ / 2000م .

11- الرازي، زين الدين محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، (د.ت.)

12- رفيق العجم، موسوعة مصطلحات أصول الفقه عند المسلمين، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت- لبنان، ط.1، 1997م،

13- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البحر المحيط في أصول الفقه، ضبط وتعليق : د . محمد محمد تامر، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط.1، 1421هـ / 2000م .

المنارة للاستشارات
ww

14- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، ت: محمد أبو الفضل ابراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، (د.ت.)

15- السبكي، لتاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب، ت: الشيخ علي بن محمد معوض و الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار عالم الكتب، بيروت- لبنان، ط.1، 1419هـ / 1999م .

16- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، الإتقان في علوم القرآن، تعليق د . مصطفى ديب البغا ، دار ابن كثير، دمشق- سوريا، ط.3، 1416هـ/1999م و ط.4، 1420هـ/2000م وطبعة أخرى بتحقيق مركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف – المملكة العربية السعودية .

17- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، ت: أبي حفص سامي بن العربي الأثري، دار الفضيلة، الرياض، ط.1، 1421هـ / 2000م .

18- عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، العقيد الإسلامية وأسسها، دار القلم، دمشق، .ط. 7، 1415هـ / 1994م .

19- عبد الله محمود شحاتة، علوم القرآن، دار غريب، القاهرة، (د.ت.)

20- غانم قدُّوري الحمد، محاضرات في علوم القرآن، دار عمار، عمان- الأردن، ط.1، 1423هـ / 2003م .

21- الفيروزابادي، مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الشيرازي الشافعي، القاموس المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط.1، 1420هـ / 1999م، مؤسسة الرسالة، بيروت، ت: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط.2، 1407هـ / 1987م .

22- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون، (د.ت.)

23- محمد سعيد رمضان البوطي، من روائع القرآن تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عزّ وجلّ، مكتبة الفارابي، دمشق، (د.ت.)

24- محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، دار الفكر، ط. 1408هـ / 1988م .

25- مصطفى ديب البغا ومحيي الدين مستو، الواضح في علوم القرآن، دار الكلم الطيب ودار العلوم الإنسانية، دمشق، ط. 2، 1418هـ / 1998م .

26- مصطفى سعيد الخن، مبادئ العقيدة الإسلامية، منشورات جامعة دمشق، ط.9، 1416هـ / 1996م .

27- موسى إبراهيم الموسى، بحوث منهجية في علوم القرآن، دار عمار، الأردن- عمان، ط. 2، 1416هـ / 1996م، وطبعة دار المعرفة، بيروت- لبنان .

المنارة للاستشارات